افتداء الشرق

ان حكاية الشرق الادنى الحديثة حكاية سلسلة من المصائب والرزايا وصنوف العذاب . فان ولايات البلقان كلها اشتركت في الحرب العظمى بعدما استنفدت حرب سنة ١٩١٢ و١٩١٣ فواهن لم ينهضن من كبوتهن ولا جددن الا القليل من همتهن في الفترة التي ما بين الحربين فجاءت الحرب العظمى فاصمة لظهور امهن اذ تركتهم لحماً على وضم . فالحرب بلاد الابطال هبت عليها زوابع الخراب والمحرت واجتاحت قراها ومزارعها الباسقة وسكانها الناعمين الآمنين فصيرتها اطلالاً بالية . واليونان أخذت في تيارات الدسائس الالمانية فاضطرت ان تعي جيشها للحرب في حين ان الفاقة بلغت فيها اشدها وفي حين كانت ترى ابناءها يضطهدون شرّ اضطهاد في الاناضول

واذا حولنا انظارنا الى رومانيا رأينا فيها آثار الشره التوتوني وحكم الارهاب بادية في اقطع اشكالها . فان كان في التاريخ طاغية شدّ الخناق على امة قصد استعبادها فذلك الطاغية هو امبراطور المانيا وهذه الامة المسكينة هي رومانيا . فقد عمد فيها الى اشكال مختلفة من الظلم الاقتصادي ولا غرض له من ذلك الا خنقها وازهاق روحها

ولما كانت البلغار ارق امم البلقان علماً واعظمهن تقدماً فان ذلك يجعل اخضاعها لالمانيا اكثر غرابة ويحملها اكثر استهدافاً للملام على سوء معاملتها للصرب . وهناك ما يدلنا على ان بعض ساستها يشعرون اذ يرون بعين الخيال يوم القضاء قادماً عليهم حتماً ذلك اليوم الذي تغبر فيه تخوم الممالك وتسوّى حقوق الامم بدرس الحقائق والوقائع درساً دنيئاً عادلاً لا بقوة السلاح

على ان أحدث فصول السياسة الحديثة وافظعها حوادث هو ما جرى ضمن حدود السلطنة العثمانية . فيها اقدم الالمانيّ بعد نظام وتدقيق على التركيّ

(١) تشرف هذه القلعة في عدد نوفمبر سنة ١٩١٨ من مجلة الهلال الاميركية وكاتبها السير صموئيل دتون الاميركي كاتب رئيس تحرير ... ثالث في اميركا لانقاذ الشرق وانهاء واسمها محركة المرسلين البلجيكيين

صاغراً وسيره على خطط شرّ من كل ما سار عليه حتى الآن. ومتى حان للمؤرخ ان يرى الحرب العظمى على حقيقتها مجردة عن الحواشي والغواشي فحينئذٍ يرى ان معاملة الالمان والترك لاهل السلطنة العثمانية المسيحيين هي افظع فظائع تلك الحرب. فقد يكفي بعد الحرب ان تراجع مسائل البلقان وتدرس وتسوّى على ما يوجبهُ العدل وما يقتضيهِ السلام الدائم. اما الحكم التركي فلا غنى عن قلبهِ رأساً على عقب ثم بنائهِ ثانية على اساس الكفاءة والاستقامة

ان اصوات مليون ونصف من ضحايا الارمن والاروام والسوريين ترتفع الى السماء طالبة العدل ولا ريب ان العالم المتمدن يسمع هذا النداء. ولا بدَّ هنا من القول ان الحكومة الالمانية يجب ان تُسأل عن كل ما أُهريق من الدماء. فان البينات عليها كثيرة جدًّا ومنها ما يأتي من مصادر المانيا رأساً او بواسطة. فاقوالهم التي صدرت عن رجال من امثال تشارلز وودس والسفراء مورجنتو والكونس والدكتور هرمي ستورمر الضباط الالمان تؤيدها اقوال كثير من المرسلين والقناصل وغيرهم ممن يشهد انهُ رأى بعينيهِ ضباطاً من الالمان يقتادون الجنود العثمانية في المذابح. ويؤيدها كذلك الاحتجاجات الكثيرة التي صدرت من الاستانة وبرلين ولم يلتفت اليها البتة. ولمَّا بلغت اخبار فظائع الارمن اميركا قام الكونت برنستورف ينفيها بكذبهِ المعتاد

ان لاميركا اهتماماً خاصاً بالمسيحيين من سكان تركيا فان مرسليها ما فتئوا منذ مئة عام يفتحون المدارس والكليات في كل ولاية ويرفعون مستوى المعيشة بين اهلها. وهي لا تنسى ان الحكومة الالمانية الامبراطورية دبرت هذه الفظيعة التي هي اعظم فظائع التاريخ (اي الحرب العظمى) وحرّضت عليها. لذلك ترى ان الرئيس ولسن والمستر لويد جورج والمستر لودج محقون في وجوب فرض شروط الصلح على المانيا. فان الشرق الادنى لا يمكن ان يجدّد ويشيد بناؤهُ ثانية بالكلام والمفاوضة. وهذا واضح اذا راجعنا بعض الحوادث التي سجلت ايغال المانيا في تركيا

الدسائس الالمانية في تركيا

رأت المانيا ترويجاً لمشروعاتها المختلفة مثل مشروع سكة حديد بغداد

والمشروع القاضي بانشاء امبراطورية جرمانية عظيمة في اوربا الوسطى وهو المسمى بالالمانية Mittel-Europa وغيرها ان لا مناص من حرب تذلك بها روسيا وفرنسا وتشل ايديهما عن توجه همتها الى اسقاط انكلترا . ولا ريب ان مضمها اقتصادي ولكنها عقدت العزم على الانحطاط الى ادنى دركات الدسائس في سبيل انجاز هذا المطمع . وان من ينظر بعين خياله الى الماضي ويذكر زورة الامبراطور للاستانة وما حفها من الابهة والتفخفخة وما تظاهر به من الحب الجم لعبد الحميد والميل الى الاسلام يرى نقطة من بحر ذلك المشروع الممتد الاطراف الواسع الاكناف

وليس منا من يجهل كيفية اكراه تركيا على خوض غمار هذه الحرب ضد روسيا . فقد خاضتها معلنة الجهاد بايعاز المانيا . وكانت المانيا ترجو ان الثلاث مئة مليون مسلم في اسيا وافريقية يقومون قومة رجل واحد لمحاربة جميع المسيحيين (ما عدا الالمان طبعاً) . ولكن هذه المكيدة اخفقت فلم يشق مسلمو الهند عصا الطاعة على انكلترا ولا قامت فتنة في شمال افريقية وكان خير جواب لهذه المكيدة الابليسية انضواء الناس افواجاً على اختلاف مللهم ونحلهم الى الجيش الانكليزي . ولو ترك التركي وحده ما خطرت هذه المكيدة له ببال فقد قال السفير مورجنتو ان انور باشا الحاكم الحقيقي في تركيا هزأ بهذه المكيدة وحسبها ملحة من الملح . ولكن لا بدّ ان يكون قد غيّر نظره فيها وعاد فحسبها امراً ذا بال لما نادى العرب باستقلالهم تحت قيادة ملكهم الحالي وتولوا بانفسهم امر العناية بالمدينتين المقدستين مكة والمدينة

وكان الالمان يظنون لانفسهم جواً خالياً ينقضّون فيه ما شاءوا في سبيل مشروعهم القاضي باستعمار اسيا الصغرى واستخراج دفائن ثروتها المعدنية والزراعية . فرأوا ان التخلص من قبائل عرفت بذكائها وبعد نظرها في الاعمال والاشغال كالارمن والاروام يسهّل عليهم مهمتهم هذه . هذا ما كان الالمان يسعون اليه . اما الترك فكان همهم الاول جعل املاكهم تركية ولكن همهم هذا كان في الحقيقة الامر وهمّ الالمان الاكبر . ولو اتيح للالمان النصر لاسمى الاتحاديون وانصارهم كالقشّ الذي تذروه الرياح

اضطهاد الارمن

مثل الفصل الاول من هذه الرواية الاثيمة في سنتي ١٩١٣ و١٩١٤ قبل الحرب فاضطهد نحو ٤٠٠ الف من الارمن القاطنين على الساحل المتاخم لجزيرة ساقز ومدله واخذت منهم بيوتهم واكرهوا على الفرار الى اليونان طلباً للنجاة بانفسهم .على ان هذا الفصل انما كان تمهيداً لمشروع من النفي والذبح اوسع نطاقاً من سابقه فما جاء صيف سنة ١٩١٥ حتى جعل الترك ينفذون هذا المشروع بدقائقه والغرض منهُ محو الامة اليونانية من لوح الوجود . وكانت طلائعهُ الغاء امتيازات الارمن الخاصة والغاء حرية التعليم التي كانوا يتمتعون . بها فنظموا في سلك الجيش العثماني وفرضت عليهم الضرائب الباهظة وصودرت املاكهم وتلا ذلك نفيهم من اوطانهم جماعات واعمال الذبح والنهب والتعذيب فيهم حتى اضطر نحو مليون ونصف مليون رومي ان يتركوا بيوتهم بعد ما اذيقوا صنوف العذاب ما عدا ارمن الاستانة وازمير وبضع مدن اخرى . جاء في تقرير وزير خارجية اليونان الرسمي الذي صدر في مايو سنة ١٩١٨ ما ترجمتهُ « ان نصف الارمن الذين ابعدوا عن اوطانهم ماتوا بسوء المعاملة والامراض والمجاعة وكثيرون انتحروا او قتلوا في داخل الاناضول

نفي الارمن وتعذيبهم

بلغت منكرات الالمان والترك رباها في معاملة الارمن . فقد اتم عصر عبد الحميد بتركهِ جنودهُ يفتكون بالارمن طول عهد ملكهِ . وفي ربيع سنة ١٩١٥ جعل الاتحاديون يحرضون الالمان ينفون الارمن ويعذبونهم عذاباً ما عذبهُ احد في العالمين من اول عهد الناس بالتاريخ. وقد جروا في ذلك على طريقة منظمة مدبرة في كل مدينة وقرية .وخلاصتها القبض على الذكور ما عدا الشيوخ والصغار وسلبهم وتعذيبهم وذبحهم ونفي الباقين من نساء واولاد وشيوخ الى بادية الشام مشاة . وقد وصف المرسلون وقناصل اميركا سوء معاملة الذين تركوا احياء وصفاً يفتت الاكباد فكان يسلبون المساكين حتى ثيابهم ويسرقون البنات ويذبحون من شاءوا ويستحيون من شاءوا ويمنعون الطعام والماء عن كثيرين ليموتوا جوعاً وعطشاً . هذا اذا صرفنا النظر عن العذاب العقلي وارهاب قوم

يعدون من اكثر سكان السلطنة العثمانية ادباً واسمحهم تربية واوفاهم واحسنهم حالاً

وقد اختلف الباحثون في تقدير عدد الذين ماتوا منهم . فقدرهم واحد بثمانين الفاً وايصلهم آخر الى مليون. ومهما يكن من ذلك ففي كل سورة سوداء اشعة منيرة ونور ضئيلة . فان كثيرين من العثمانيين حزنوا وبكوا لما اخذ جيرانهم واصدقاؤهم الارمن من بينهم . ويقول المرسلون ان كثيراً من بيوت المسلمين آوت وحمت كثيرين من اعضاء هذه الامة المنكودة الحظ

اما الارمن الذين فروا الى ايران والقوقاس فكثير منهم هلكوا بالجوع والمرض وكثير جاءهم الخبر على يد لجنة محافظ لندن والحكومة الروسية وخصوصاً على يد اميركا

المجاعة في سورية

ان السوريين القاطنين في جوار لبنان(١) نكبوا بالمجاعة حتى مات منهم بضع مئات الوف . وكان سبب موتهم الحرب وشدة وطأة الترك في ادارة زمامها فصادروا من الاهالي جميع المواشي اللازمة للحرث والنقل وبالغوا في ذلك حتى لم يبقوا لمدرسة بيروت الكلية سوى بغل ينقل حاجاتها من السوق. وصادر جمال باشا جميع اصناف الطعام من البلاد للجيش . وزاد الحالة تفاقماً حصر ساحل سورية برمته

الاعانات الاميركية

ولما بلغت انباء هذه الفظائع الاستانة في صيف سنة ١٩١٥ بعث السفير مورجنثو برسالة برقية الى المستر كيفلند ددج في نيويورك يلتمس في ارسال المعونة من اميركا. فتألفت جمعية اعانة ارمينية وسورية وعملت من اعمال البر والاحسان ما لا مثيل له الاَّ اذا استثنينا اعمال جمعية الصليب الاحمر . وهذه الجمعية مؤلفة من المستر جيمس برتون (من مدينة بوستن) رئيساً والمستر صموئيل دتون (كاتب هذه المقالة) نائب رئيس وهو من نيويورك ورئيس اللجنة التنفيذية. والمستر تشارلز كراي والمستر كيفلند ددج امين صندوق . فاجتمع من التبرعات

(١) المقتطف - وقد ابنتك الانباء المتأخرة عن هذه المقالة ان لبنان كان اعظم نكبة من البلاد المجاورة له

اكثر من ١٢ مليون ريال وكل ريال منها ينفق على حاجات المنكوبين لان رجلاً كريماً من نيويورك تبرع بنفقات الادارة كلها . وانفقت الوف كثيرة غير ما تقدم من فوائد الاموال المودعة ببنوك نيويورك . وجعلت الاستانة مركز الاعانة وبحسن مجاورة المرسلين الاميركيين وتفاصيل اميركا امكن ايصال الاعانات الى كل بقعة من بقع اسيا الصغرى . وجعلت القاهرة والقدس قاعدتين لاعمال الاعانة في فلسطين وسورية . فانقذ بذلك الوف من الموت جوعاً وعرياً

ومما يدلُّ على روح الغيرة والغيرة الحقيقية التي بذلها المرسلون الاميركيون ان عشرين منهم ماتوا في قضاء واجباتهم هذه . وآخر هؤلاء الشهداء الدكتور شد . فقد قال في كتاب كتبهُ من اورمية قبيل وفاته ما يأتي : مما يدلُّ على عظم نكبة هذه المدينة اننا ندفن كل يوم عشرين نفساً يموتون جوعاً فيها وحدها حتى بات الموتى يعدون بالالوف . ومعظم تعبنا الآن من اجل المسلمين »

الارمن ايضاً

وعاد الارمن المساكين فنكبوا نكبة ثانية في الاشهر الاخيرة على اثر تداعي روسيا وسماح الالمان للترك بالزحف الى الامام لصبِّ جامات نقمتهم على رؤوس الذين سلموا منهم في المرة الاولى . فاضطر لذلك ثمانون الفاً من الارمن النازلين على حدود ايران ان يهربوا شرقاً

عمل التجديد والترميم

ان العامل الجوهري الاول في افتداء تركيا هو انشاء حكومة عادلة قوية في الاستانة تديرها لجنة مختلطة او دولة متمدنة من الدول العظمى رهنت فيما مضى على انها اهل للحكم حكماً سداد المروءة ولهتهُ السداد . ويجب ان تكون هذه الحكومة « بواسطة الشعب من الشعب للشعب » (١) واذا طلب من اميركا تولي هذه المهمة فالواجب عليها ان لا ترفض . والمرجح انهُ لا انذار الرئيس وشنطن لامتهِ من المحالفات الاجنبية ولا قيود مبدإ مونرو وضوابطهُ تحول دون هذه المهمة البارَّة التي تساوي بين التركي والارمني والسوري واليهودي والروي في الامن على نفوسهم وتوفير اسباب الهناء لهم

(١) كلمة مأثورة عن الرئيس لنكن في حرب اميركا الاهلية

والعامل الثاني هو وضع اموال كافية تحت يد هذه الحكومة بشكل قروض لاعادة المنكوبين الى اوطانهم واعمال التجديد والتعمير . منها ترميم المنازل التي خربت وشراء الآلات والادوات اللازمة لاحياء معالم الزراعة والصناعة. وشراء المواشي والملاح الدروب ووسائط النقل وفتح المناجم لاستنباط معادنها وآبار البترول وبذل جهد خاص في اصلاح الوسائل الصحية

التربية والتعليم

ومن اللازم لكل دمقراطية نامية ان يكون التعليم فيها حرًّا عامًّا . وخير ما يصنع في هذا السبيل احتذاء مثال المرسلين الاميركيين الذين ما فتئوا منذ مئة عام ينشئون المدارس والكليات في جميع ولايات السلطنة

اما حالة البلاد الاقتصادية فهي الآن في ادنى الدركات واحطها . فقد فقدت السلطنة العثمانية مليونًا ونصفًا من خيرة ابنائها وشلَّت المشروعات الصناعية والزراعية في كل مكان وخربت في اماكن كثيرة. والبلاد من اطيب بقاع الارض سواء نظرنا الى ذكاء تربتها او كثرة معادنها . وفيها من الايتام زهاء نصف مليون لا بدَّ من ايوائهم وتنشئتهم حتى يستطيعوا ان يعولوا انفسهم . والرجاء شديد في الكليات المستقلة التي بقيت مفتوحة في سني الحرب والخراب وهذا عمل يمتدح الترك عليه. فالكلية السورية الانجيلية في بيروت ستصبح جامعة ومدرستها الطبية من طبقة افضل المدارس . وكلية روبرت في الاستانة فتحت فرعًا للهندسة وعندها اموال كثيرة تستطيع بها الاستمرار على تربية رجال يكونون قادة الشرق الادنى . وكلية البنات في الاستانة ساعية في انشاء قسم للعرضات وقسم للصيدلة وآخر للفنون العملية اللازمة لتدبير المنزل مثل الطبخ والعناية بالصحة وخياطة الملابس

ولا ريب ان الرئيس ولسن يقوم بهذا البرنامج كله . فان اميركا لا ينسى بعد الذي بذلت من مهج رجالها وانفقت من اموالها في هذه الحرب ان ترفع يدها قبل تضمن للشرق الادنى كله حريته وحمايته وتعدّه للتمتع بثمار سلم دائم